صورة المرأة في روايات يوسف السباعي
(رُدَّ قلبي ـ إني راحلة ـ لستِ وحدكِ)
نمـــوذجـــــًا

بحث مقدم لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

إعـــــــــداد:

ولاء قطب أحمد محمد

إشـــــــــــراف

الدكتور

وليـــد سعيـــد شيمي

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن المساعد – وقائم بأعمال رئيس قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن – كلية دار العلوم جامعة الفيوم

الدكتور

ثنـــــاء قاســـــــم

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن المساعد – كلية دار العلوم جامعة الفيوم

البُعد الاجتماعي: –

إن نظرة السباعي إلى المرأة في هذه النماذج الروائية لم تكن نظرة جزئيـــة، بـــل نجده نظر إليها نظرة كلية متكاملة؛ حيث يحيط بها من جميع جوانبها وأبعادهـــا، بدايـــة من بعدها الجسماني، وما يطرأ عليه من تغيرات مدفوعة من باطن الشخصية وهو مـــا اُختُص به البعد النفسي الذي ينصب حول ما تتعرض له المرأة من ظلم وقهـــر، يكـــون سببه في أغلب الأحيان عادات المجتمع البالية وتقاليده الصارمة التي تقف حـــائلا فـــي طريق سعادة المرأة، وتمنعها من ممارسة حقوقها، وهذا ما سيتم إيضاحه من خلال هذا البعد الاجتماعي، والذي " يمثل سمة جوهرية، وركنا أساسيا من أركان الروايـــة. بـــل يمكن أن نقول: إنه يمثل حجر الزاوية فيها ؛ ذلك لأن الأحداث جميعها تدور في نطاق

شبكات العلاقات الاجتماعية وصور التفاعل الاجتماعي للشخصيات التي يتناولها المؤلف"[١].

و يُعد البعد الاجتماعي الأكثر إيضاحا في هذا النوع الأدبي الروائي؛ وذلك لما يعالجه من قضايا ومشكلات متعددة الأنماط، وتسهم بقدر كبير في بناء المجتمع ورقيه، وذلك إذا تم علاجها وتناولها بطرق إيجابية، وقد يكون لها تأثير سلبي على المجتمع إذا ظل التعامل معها وفقا لعادات المجتمع وتقاليده الصارمة.

والكاتب يستعين ببعض الشخصيات؛ ليعبر من خلالها عن فئة معينة من واقعه أو مجتمعه ويقدم ما يريد طرحه من قضايا، ومشكلات اجتماعية، وهذا ما نجده في هذه النماذج الروائية للسباعي؛ حيث تتنوع الخصائص الاجتماعية لشخصياته؛ لتشمل نساءً ورجالا، وأطفالا وشيوخا ينتمون إلى مهن متنوعة ومكانات اجتماعية وعلمية مختلفة؛ لتتشابك جميعها في نطاق اجتماعي ضيق يرصده لنا الكاتب من خلال نافذته الخاصة التي يطل من خلالها على واقعه وتختلف من كاتب لآخر؛ لذا فـ "دراسة الفرد لا تتم بعزل عناصره، وإنما بتحديد ارتباطه مع غيره من الأفراد، والتأكيد على التزامه من خلال تفاعله مع وسطه الاجتماعي الذي يتحرك فيه. وبهذا يتم التعرف على موقف الفرد عن طريق ربطه بالنسيج العام الذي يتداخل معه والحكم عليه من خلال هذا التداخل"[٢].

والكاتب في تناوله للشخصية الفردية لابد أن يضعها في قالب جماعي؛ لتكون قادرة على التفاعل معه، والذي من خلاله يصل الكاتب إلى عرض القضية المرجوة؛

(١) المرأة في أدب حسن البنداري: حسن أحمد الخولي: مجلة "الرواية قضايا وآفاق "، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد١٠، ٢٠١٣م، صـ٢١٩.

(٢) نقد الرواية في الأدب العربي: أحمد إبراهيم الهواري، القاهرة ، دار المعارف ، د/ط ، ١٩٩٣م. صـ٢٦٧.

ولذلك فـ" الشخصية الإنسانية لا تقتصر حدودها على التجربة الفردية، وإنما تمتد لتستوعب التجربة الإنسانية للجماعة"(١).

من هذا المنطلق كانت المرأة دون غيرها من الشخصيات الإنسانية الأخرى أكثر تعبيرا وانعكاسا لما يطرأ على المجتمع من تغير وتطور؛ فنجدها الرمز الذي استعان به الكاتب لطرح مشكلاته وقضاياه الاجتماعية، وذلك عن طريق ما تخوضه المرأة من تجارب وما يعترض طريقها من عوائق وصعوبات؛ لأن" المجتمع يتغير نحو النضج في لهفة وترقب، وهذا ما يجعل تجربة الفتاة أخصب التجارب في مجتمعنا لأنها – لا الفتى– تنعكس عليها سمات التغيير وتصاحب حركته إلى المستقبل، وتخوض معه تجربة إثبات الوجود وتكشف مشاعر التغيير التي يمر بها المجتمع ككل، بحيث يمكننا أن نقول: إنها تصلح من الناحية الفنية أن تكون رمزا له"(٢).

ومن ثَمَّ فالمرأة النموذج الأمثل والأقدر الذي استعان به الكاتب؛ لطرح العديد من القضايا الاجتماعية التي تحتاج عند الوقوف عليها إلى كثير من إعادة وجهات النظر؛ فالمرأة دون الرجل تواجه العديد من العوائق والمشكلات الاجتماعية في مختلف حياتها العمرية، بداية من نشأتها في بيت والدها إلى انتقالها لبيت زوجها بعد ذلك؛ حيث يحاصرها المجتمع بعاداته البالية وتقاليده الصارمة.

وقد تعددت المشكلات والقضايا التي يضطهد فيها المجتمع حقوق المرأة خاصة حقها في إبداء رأيها واتخاذ قرارها، فهناك مسألة الزواج، وما يتفرع عنها من مشكلات وقضايا اجتماعية أخرى، تمثلت في قضية الحرية والتفاوت الطبقي وغيرهما من القضايا الاجتماعية الأخرى.

(١) مناهج النقد المعاصر:صلاح فضل، القاهرة ، دار الآفاق العربية ، ط١، ١٩٩٧م.: ص٥٢.
(٢) تجارب في الأدب والنقد: شكري عياد. طبعة دار الكتاب العربي، ١٩٧٧ م. ص٣٧٣.

ومن ثَمَّ كان الزواج من أهم ما يواجه المرأة وأخطره في مجتمعنا هذا بكل عاداته وتقاليده التي يفرضها على أبنائه؛ حيث أضحى الزواج منظومة معقدة ومركبة تحتاج إلى إعادة تقييم من جميع الجوانب.

لذا يتناول السباعي هذه المسألة – الزواج – بأدق تفاصيلها، كما يطرح بعض القضايا الاجتماعية الأخرى التي لها صلة وثيقة بهذه المسألة، وتكون– في أكثر الأحيان– السبب الرئيسي وراء فشلها، لذلك سأبدأ هذا الفصل بالموضوع المحوري– الزواج– والذي يتفرع منه العديد من القضايا الاجتماعية الأخرى.

المبحث الأول: الزواج[١]:

لم يعُد موضوع الزواج عادة من العادات الاجتماعية التي يسعى الجميع من أطراف المجتمع إلى العمل على تحقيقها، بل أضحى في وقتنا الحالي منظومة مركبة، ومعقدة في جميع أجزائها تحتاج إلى إعادة تقييم وتحسين.

لذا لم يُغفل السباعي في هذه النماذج الروائية عن تقديم مفهوم لهذه المسألة، بل نجده يقدم تحليلًا ووصفًا دقيقًا له، موضحا من خلال هذا المفهوم شروطه الرئيسية وطبيعته الجوهرية، مبينا أهم مقومات هذه الشركة بين الزوجين دون تهميش لدور الآخر، مع ذكر العوائق والقيود التي تواجه هذه القضية، وما يترتب على ذلك من مشكلات معقدة ومركبة قد تكون– غالبا– السبب الرئيسي في انهيار أهم ركن من أركان بناء المجتمع؛ فنجده يذكر هذا المفهوم في أحد هذه النماذج على لسان " شهيرة " والتي تذكر أن " الزواج شركة قد يكون من مقوماتها الحب والجنس، ولكن مقوماتها

(١) استعملت كلمة الزواج في لغة العرب بمعنى الاقتران ، والازدواج ، قال علماء اللغة الزواج والمزاوجة والازدواج كلها بمعنى واحد ، وكلمة الزواج بمعنى النكاح ، وقد وردت العديد من الآيات في القرآن الكريم دل على أن اللفظان بمعنى واحد. ومن دلائل ذلك قوله تعالى " وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِسَاءِ ".
انظر: مختار الصحاح: أبو بكر الرازي ، صـ ٢٩٠.

الأهم هي التوافق بين طرفي الشركة، ومدى فهمها لمسئوليتها في الشركة، وفي أنها ليست مجرد حقوق بلا واجبات، أو وسيلة للإشباع العاطفي أو الجنسي، وإنما هي مشاركة في عملية بناء جادة وخطيرة، تتزايد خطورتها مع الأيام. عملية بناء يجب أن يتحمل كل منهما نصيبه فيها من الجهد والمشقة والمتاعب والمشاكل، ولا يتخلى عن مسئوليته في الشركة المستمرة النمو والتعقيد لأي إغراء خارجي إن أخطر ما في الزواج هو فهمه على إنه ترخيص لجنس محرم إلا برخصة الزواج، لأن الزواج ليس وسيلة للاستمتاع بالجنس، بل قد يعتبر أبعث على الزهد فيه. وقد يكون هذا السبب في معظم مشاكل العلاقات البشرية. إن البشر يخذلون في الزواج عندما يرون أنهم لم يحقق ما يتوهمونه فيه من إشباع لعاطفة الحب السابق له، أو إرواء دائم لعطش الجنس الدافع إليه، ويجدون أن ما حققه فعلا هو تحميلهم عبء المسئولية الحقيقة لإقامة بيت وتكوين أسرة، وتنمية صغار تتزايد مطالبهم مع الزمن، وأنه إذا استقرت الشركة واستقام بناؤها، يحقق نوعا من الحب الراسخ الذي ينمو بدوام الارتباط وطول العشرة وإحساس كل طرف بفضل الآخر عليه وحاجته له"(١).

من خلال هذا المفهوم الدقيق الذي قدمه السباعي في صورة واضحة نجده ينتقد مفهوم الزواج من حيث الفهم الخاطئ الذي يأخذه كثير من الأزواج والزوجات عن ذلك المفهوم؛ فنجده يلمِّح لأهم المقومات وأبرزها التي تؤدي إلى نجاح هذه القضية المعقدة والنهوض بها، وهو عامل " التوافق والقبول " بين الزوجين والذي يؤدي إلى تشييد أسرة نموذجية، وعلى الجانب الآخر عند غياب هذا العامل تظهر عديد من المتاعب والمشكلات الزوجية بينهما مما ينتج عنه هدم الحياة الزوجية وانهيارها.

وقد أشار السباعي في هذه النماذج الروائية إلى هذا النوع من الزواج الذي يقوم على غياب هذا العامل، وذلك من خلال الشخصية النسائية " والدة عايدة " وهي أول من عانت مأساة هذا الزواج؛ حيث تزوجت من الرجل الثري الذي يمتلك السلطة والجاه،

(١) لستِ وحدكِ: يوسف السباعي، القاهرة ، طبعة مكتبة مصر ، د/ت. صـ ٣٨٦.

وعلى الرغم من أنها كانت تقطن القصر المنيف الذي كان يعج بالخدم والحشم، فإنها كانت لا تشعر بأي إحساس بالسعادة في حياتها الزوجية؛ لغياب عامل التوافق والتفاهم بين الطرفين، مما جعل هذه المرأة لا تأبه لأية مظاهر الدالة على الراحة والرفاهية، بل نجدها تترك كل مظاهر الغنى والثراء للبحث عن راحتها النفسية وسعادتها الحقيقية، الأمر الذي أثار انتباه ابنتها " عايدة " قبل أن تدرك أن هناك راحة كبرى بعيدة عن جو الثراء والرفاهية التي تعيشها وتتمثل في الراحة النفسية؛ حيث نجد " عايدة " تتساءل في تعجب دون أن تلتمس لأمها العذر قائلة:" أي عذر يمكن أن يكون لامرأة تركل بقدميها ذلك القصر المنيف والنعمة السابغة والهناء المقيم، وتترك رجلا مثل أبي وقورا جادا محترما.. قد يكون خلوا من المشاعر والرقة.. ولكن ما لها وماله ؟ لِمَ لا تتمتع بالغنى والراحة والاستقرار ؟ لِمَ لا تدعهُ في حاله، وتتمتع بحالها؟"(١).

يُلاحظ أن السباعي يتعامل مع المشكلة العاطفية بوصفها" مشكلة اجتماعية في جوهرها وليست فردية على الإطلاق، كما يظن البعض للوهلة الأولى، إنها ليست شذوذًا أو استثناءً، وإنما هي ظاهرة حقيقية في المجتمع، وهي مشكلة اجتماعية بالمعنى الواسع العميق الذي يحتوي أو يستوعب مختلف الطبقات وفئاتها المتنوعة، وهي مشكلة اجتماعية، ثالثا عن طريق اتصالها الوثيق ببقية المشكلات التي يموج بها مجتمعنا"(٢).

ولم يعد الزواج موضوعا يتم بين عشية وضحاها، بل أضحى منظومة معقدة ومركبة تحمل في طياتها العديد من الأركان والخطوات التي تتم عبر سلسلة من المراحل لإنجازها؛ وأول هذه الخطوات هي " الخطبة " والتي تُعد مقدمة للزواج الذي

(١) إني راحلة: يوسف السباعي، القاهرة ، طبعة مكتبة مصر ، د/ت. صـ١٧.

(٢) معنى المأساة في الرواية العربية: د/ شكري غالي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، طـ ٢ ، ١٩٨٠م، صـ٥٩.

لخص السباعي مفهومه في عبارة موجزة بقوله:" الزواج: عقد شركة أكثر منه تصريح بمتعة"(١).

وهذا القول الموجز يحمل كثيرا من المعاني التي لم يُصرح بها هنا، لكنه أدلى بهـا في مفهومه السابق للزواج.

الخطبـــــة (٢):

الخطبة هي طلب المرأة للزواج من وليها كما هو شائع ومعـروف، وقـد أشـار السباعي إلى هذا النوع من الخطبة التي تقوم على طلب يد المرأة من وليها، ومن هـذه المواضع التي ذكرت في هذه النماذج الروائية ما جاء في رُدَّ قلبي، عندما نوى "علـي " أن يتقدم لخطبة " أنجي" حيث نجده " ينوي لقاءها، وعتابها، ومناجاتها، والاتفاق معهـا على ربط علاقتهما بميثاق إيجابي معترف به. ثم التقدم إلى أبيها"(٣).

وذلك هو المعروف والشائع لدينا أن يتقدم الرجل أو الولي لخطبة الفتاة، وهذا مـا فعله والد" علي " الذي تقدم ذهب إلى والد " أنجي " ليطلبها للزواج من ابنه " علي "لكن في بعض الأحيان قد يكون الطلب للزواج من ولي المرأة للرجل، لكن هذا الأمر وهـو

---

(١) الروائيون الثلاثة: يوسف الشاروني، القاهرة ، مركـز الحـضارة العربيـة ، طـ٣، ٢٠٠٣م. صـ١٩٤.

(٢) الخطبة لغة: من الخطب: الشأن والأمر صغر أو عظم، انظر: القاموس المحيط: الفيروز آبادي. طبعة مؤسسة الرسالة. القاهرة. صـ ٨٠.

و" خاطبه " مخاطبة وخطابا: وهو الكلام بين متكلم وسامع ، ومنه اشتقاق الخطبة بـضم الخـاء وكسرها باختلاف معنيين. فيقال في الموعظة خطب القوم وعلـيهم ، وخطبـة بـضم الخـاء ، وجمعها: خُطَب ، فهو خطيب ، والجمع: الخطباء. وخطب المرأة إلى القوم إذا طلب أن يتـزوج منهم واختطبها .

والاسم الخِطبة بالكسر فهو خاطب وخطّاب مبالغة ، واختطبه القوم دعوة إلى تزويج صـاحبتهم " انظر: المصباح المنير: الفيومي. طبعة دار الحديث. القاهرة. صـ ١٠٦.

(٣) رُدَّ قلبي: يوسف السباعي، القاهرة ، طبعة مكتبة مصر ، د/ت. جـ ٢. صـ ٤٦٨

عرض المرأة للزواج من وليها على الرجل الصالح نادرا ما يحدث في مجتمعنا الشرقي أو يكاد هذا الأمر ينعدم؛ حيث تقف العادات والتقاليد الصارمة عائقا في سبيل تحقيق ذلك؛ ويوجد كثير من الأهالي الذين يرون من يناسب ابنتهم دينا وخلقا.

وقد رصد السباعي أنموذجا لهذا النوع من الأهالي في أحد هذه النماذج الروائية، وتمثل هذا الأنموذج في الشخصية النسائية " جدة عايدة " والتي كانت ترى في " أحمد " الذي أحبته " عايدة " مواصفات الزوج المناسب؛ وذلك لما يتمتع به من حسن الأخلاق، وجاء ذلك على لسان " عايدة " التي شعرت بهذا الميل من جدتها، فنجدها تعبر عن ذلك بقولها:" كانت تحب أحمد وتلمس فيه نبل الخلق، وطيبة القلب.. وكنت أحس أنها تراه زوجا ملائما، ولا تجد من ناحيتها مانعا من أن نصبح زوجين سعيدين"(١).

كما يرصد السباعي بنظرته الواقعية أكثر من نمط لموضوع الزواج الذي يُعد " انتقالا من سلطة رجل إلى سلطة رجل آخر، وإنه لا يمكن حل المشاكل المترتبة عن هذا الانتقال إلا بنفي السلطة الأبوية، لتتمكن المرأة من بدء حياة جديدة تحت سلطة أبٍ جديدٍ " هو ولي الأمر"(٢).

فنجد الزواج النفعي والزواج التقليدي، وقد أشار السباعي إلى هذين النوعين من الزواج في أكثر من موضع في هذه النماذج، ومنها:

الزواج التقليدي:

هو ذلك النوع من الزواج الذي تغلب عليه العادات والتقاليد الرجعية، ورغم ما يحدث لمجتمعنا من تطور وتحسن في شتى المجالات فإن الأفكار الرجعية ما زالت

(١) إني راحلة: صـ٩٥.

(٢) مبادئ تحليل النصوص: بسام بركة(دكتور) ، مايو قويدر ، هاشم الأيوبي القاهرة، الشركة العالمية للنشر، لونجمان ، ط١، ٢٠٠٢م. صـ ٤٣.

تسيطر على كثير من الأذهان، ويتم هذا الزواج بالإكراه- غالبا- من أحد الطـــرفين أو كليهما.

وقد أشار السباعي إلى هذا النمط التقليدي من الزواج في هـــذه النمـــاذج الروائيـــة منها: ما نلاحظه في " إني راحلة " من خلال الحوار الذي دار بين " أحمد " و" عايدة " عن موضوع الزواج، حيث تسأله:

" لم تتكر إذا أن لكَ ليلاك ؟

ــ ليلاي شيء.. وعروسي شيء آخر.. هذه عروس بالإكراه. فقـــد اتفقـــت أمـــي وأمها منذ ثمانية عشر عاما ــ أي منذ ولدتُ ــ أنها ستصبح زوجتي.. وأغلب الظـــن أنهما قرآ الفاتحة و"

جزء عمَّ " بأكمله"(١).

يعلق السباعي على هذا النوع من الزواج بأسلوبه الفكاهي الساخر الذي ورثه عـــن أبيه كما ذكرتُ من قبل، ثم يقارن بين محبوبة الشخص وبين عروسه المستقبلية؛ لأنـــه قلما يتزوج الشخص محبوبته؛ فكانت " عايدة " محبوبته، بينما كانت " ابتسام " عروســـه المستقبلية التي اتفقت الأمهات على تزويجهما منذ الصغر.

كما يرصد لنا السباعي جانبا آخر من الزواج في هذه النماذج الروائية وهـــو مـــا يعرف بالزواج النفعي أو المرتب وأتناوله في السطور التالية:

الزواج النفعي:

وهذا النوع من الزواج لا يختلف كثيرا عن النوع السابق – التقليدي – فهو الـــذي يعود بالمنفعة أو المصلحة الشخصية للطرفين أو لأحدهما ويُعد –أيـــضا–" زواج أحـــد الأطراف بغير من يحب ويتمنى، أو ما يعرف بالزواج المرتب الذي يخـــضع لـــسطوة

(١) إني راحلة: صـــ ٥٤.

العادات والتقاليد والقيم التقليدية. وفي هذا النمط غالبا ما يخضع الشاب أو الفتاة لإرادة ورغبة أحد الوالدين أو كلاهما في اختيار شريك حياته في الوقت الذي يكون فيه عازما على الارتباط بشخص آخر يستريح إليه ويتوافق معه نفسيا وعاطفيا"[١].

المبحث الثاني: التفاوت الطبقي:

على الرغم من حدوث تغير وتطور من الناحية الثقافية، فأن هذه التغيرات تُعد شكليات ومظاهر سطحية تصيب القشرة فقط، ويظل اللب كما هو بأفكاره الرجعية وتقاليده البالية.

والمرأة من أبرز النماذج الإنسانية التي عبرت عن هذا الصراع باقتدار؛ لذلك " استخدم الروائيون الرواد صورة المرأة أداة فنية للتعبير عن الأزمات التي يتعرض لها البشر نتيجة سوء توزيع الثروة الاقتصادية، وذلك أن المجتمع كان مجتمع الأغنياء الذين تتمركز في أيديهم مصادر الثروة ومراكز السلطة، ولكن كان هناك شريحة تمثل جناحا جديدا في البرجوازية[٢] الصغيرة تشرئب بما أوتيت من قدرة ومعرفة إلى أن تنال نصيبا من مراكز السلطة ومصادر الثروة، وهي التي تحمل الأزمة ويطحنها الصراع؛ لأنها المحافِظة على المُثل والمتمسِّكة بالمصالح؛ فالأغنياء يرون أنهم بمالهم وثرواتهم أكبر من أي مبدأ، والمحرمون يرون أنفسهم أدنى من أن يتمسكوا بمبدأ أو يكون لهم هدف سام في الحياة، بينما يصارع أبناء الطبقة الوسطى من أجل المال

(١) المرأة في أدب حسن البنداري " قراءة تحليلية " لرواية حدائق الخريف":حسن أحمد الخولي، مجلة " الرواية قضايا وآفاق " القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ١٠ ، ٢٠١٣م.: صـ٢٢٠.

(٢) البرجوازية: هي الطبقة التي كانت تتكون من الأفندية المتعلمين أو النصف متعلمين الذين يرتدون البدلة والطربوش ويحاولون جاهدين أن يأخذوا مكانتهم في المجتمع المصري ويشتركوا في إدارة البلاد ، ويكون لهم بعض النفوذ خلفا للأتراك والشراكسة الذين كانوا يظهرون الولاء للمستعمرين الإنجليز ليستولوا على أهم مراكز السلطة في الحكومة.. للمزيد انظر المرأة في أدب نجيب محفوظ: صـ ٢٨.

والمبدأ، وقد انحصرت الأزمة في هذه الفئة المتوسطة، التي تجاهد في طريق صـــخري لتحقق لنفسها الوجود. حتى إذا ما واصـــلت بـــالعلم والعمـــل إلـــى مجـــال العلاقـــات الاجتماعية، وأرادت أن تمارس حياتها بالتعامل مـــع الوســـيط رُدت أو ارتـــدت عنـــه مأزومة محرومة نتيجة للجدار السميك الذي يعزل الطبقات الاجتماعيـــة ويفـــرق بـــين البشر على أساس الثروة المادية. ومن هنا كان التفاوت الطبقي أحد المحاور الأساســـية المشكلة لأزمة الناس في الواقع وفي الرواية، وصورة المرأة بما تمتاز به من حـــساسية مرهفة على الإيحاء والتعبير وظفت في الرواية لتعكس هذه الأزمة"[١].

بناء على ذلك ينقسم المجتمع إلى ثلاث شرائح أو طبقات مختلفة تتمثل في:

- الطبقة الدنيا " الفقيرة ".
- الطبقة المتوسطة " البرجوازية ".
- الطبقة العليا " الأرستقراطية ".

ويعد التفاوت الطبقي من أهم القضايا وأخطرها التي تمنع تحقيـــق حلـــم الفتـــاة أو الرجل بالزواج ممن يرغب فيه، رغم توافر الشروط التي يبحث عنها كل طـــرف فـــي الطرف الآخر، لكن غالبا ما تعاني الفتاة مرارة الحرمان العـــاطفي مـــن جـــراء هـــذا التفاوت والاختلاف الذي يفرضه عليها المجتمع الظالم الذي يـــأبى علـــى الفقـــراء أن يعيشوا بسلام؛ لذلك ألقي الضوء على الصراع الطبقي وأثـــره علـــى أصـــحاب هـــذه الطبقات خاصة الصراع الذي يشتد بين الطبقـــة الـــدنيا " الفقيـــرة " والطبقـــة العليـــا "الأرستقراطية " وما يتوسطهما من حراك اجتماعي يسعى إليه الأفراد؛ لينـــالوا مكانـــة أعلى من مكانتهم الاجتماعية.

---

(١) صورة المرأة في الرواية المعاصرة: طه وادي، القـــاهرة ، دار المعـــارف ، طـــــ٤، ١٩٩٤م. صـــ ٨٤.

الطبقة الفقيرة:

يواجه أصحاب هذه الطبقة كثيرا من الأعباء والضغوطات من قبل المجتمع الذي ينظر إليهم على أنهم مرتبة أدنى من مرتبة البشر " وقد كتب العقاد افتتاحية بعنوان مسألة الفقر " عدَّ فيها الفقر داء كسائر الأدواء، يصيب المريض به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث، ويصيبه مع الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذي تنتشر عدواه، كما يصيبه مع ترك الحيطة في هذه الحال وفي غيرها من الأحوال على حد تعبيره"(١).

وقد رصد لنا السباعي في هذه النماذج الروائية هذا النوع من الأهالي الذين ينظرون إلى الفقير نظرة ازدراء واحتقار، ومن أمثال هؤلاء " والد عايدة " الذي يرفض ارتباط ابنته بـ " أحمد " الشاب الخلوق بسبب فقره، ويسخر منه على تفكيره في أمر الزواج، ويتضح ذلك من خلال حديث " أحمد" الذي أخبره " عايدة " بعد مقابلة والدها لطلب يدها قائلا لها:" قال لي إني ما زلت صغيرا، وأن مرتبي محدود، فلما قلت له إني سأتقاضى خمسة وعشرون جنيها، ضحك في سخرية وأجابني إنني لا أستطيع بهذا المبلغ أن أنشئ بيتا محترما دون أن أكون عالة على أحد، ونصحني أن لا أفكر في الزواج الآن ونصحني ألا أتعلق بالآمال"(٢).

يشير السباعي في هذا الموضع إلى أن الفقر والحب لا يجتمعان معا؛ حيث يقف الفقر ذليلًا أمام الغنى، وحاجزًا للزواج بمن يحب، فبالرغم من توافر الصفات الكريمة والأخلاق النبيلة في" أحمد" والتي تراها " عايدة " كُفْأً لها، فإن هذه الصفات وحدها لا تكفي عند أمثال هؤلاء الأغنياء الذين يحتقرون غيرهم من الفقراء.

---

(١) اتجاهات الأدب ومعاركه(في المجلات الأدبية في مصر١٩٣٩م ــ ١٩٥٢م): د/ علي شلش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د/ ط ، ٢٠٠٦م ، صـ ٥٠.

(٢) إني راحلة: صـ ١٦٤.

ولم يكتفِ السباعي بهذا النموذج الروائي الذي قدم فيه الشخصية النسائية " عايدة " التي ذاقت مرارة الحرمان العاطفي؛ لفقر محبوبها " أحمد " رغـم تـوافر مواصـفات الزوج الملائم فيه، إلا أننا نجده يقدم نموذجًا روائيًا آخر تمثل في " ردَّ قلبي " ويعد هذا النموذج من أبرز أعمال السباعي الروائية التي عبر فيها عن قضية " التفاوت الطبقي " حيث عبرت هذه الرواية عن الصراع الطبقي في فترة زمنية معينـة، اسـتعان فيهـا السباعي بنموذجين لأسرتين ينتمون لطبقتين مختلفتين متـصارعتين، إحـداهما سـفلى والأخرى عليا، أو كما رأى أحد أفراد الأسرة السفلى إحداهما في الأرض والأخرى في السماء.

ويتضح ذلك من خلال قول " حسين " ابن الريس " عبد الواحد " لأخيه " علـي " الذي أحب الأميرة " أنجي " وواجه عديدا من الصعاب من جراء هـذا الحـب؛ لفقـره ويعاني مثلما عانى" أحمد" من قبل، لكنه لم يسر على نهجه، بل سـلك طريقـا مغـايرًا عنه؛ فنجده لم يستسلم لظلم العادات والتقاليد التي يفرضها عليه مجتمعه الظالم، والتـي تضعه الفوارقُ الشاسعة بين أبناء المجتمع الواحد؛ حيث يتحدى " علي " هذه الـصعاب؛ كي يصل إلى ما يريد، ويلومه أخوه لسلكه هـذا الطريـق الـشائك الملـيء بالمـشقة والصعوبات في قوله " أنا أمسك بمن في طريقي، أما أنت فتسير في طريق وترجو مـا في الطريق الآخر.. وطريقك سفلي، والآخر علوي، والطريقان بأوضاع حياتنا الراهنة التي لا أمل لنا في تغييرها يسيران مستقيمين متوازيين.. أحدهما في الأرض والآخـر في السماء.. والطريقان المستقيمان المتوازيان كما تعلم لا يلتقيان أبدا"(١).

يقصد السباعي بالخطين المتوازيين في هذا الموضع " الفقر والغنى "؛حيـث يـرى أن الحب والفقر–غالبا– لا يجتمعان في مثل هذه الحالات، فمثلما وقف الفقر عائقا في وجه " عايدة "وحرمها من زواجها من " أحمد " الذي رفضه والدها؛ لفقره نجـده– أيـضا – يفرق بين " أنجي " و" علي " ويقف سدا منيعا في سبيل سعادتهما.

(١) رُدَّ قلبي: جـ١ ــ صـ٣٠٢.

نجد السباعي في تناوله لمسألة " الزواج " ينتقد السلبيات التي تعتريها، والمظاهر الشكلية التي تُعد ضرورة من ضرورات إتمامها، وتتمثل في الإجراءات التي يقوم بها المأذون بوصفها شروطا جوهرية لا يمكن الاستغناء عنها، فبالرغم من حدوث تغيرات للمجتمع من الناحية الاجتماعية والثقافية، فإن العادات والتقاليد والأفكار الرجعية ما زالت تسيطر على كثير من أصحاب النفوس الضعيفة، والعقول الغائبة الذين يرون أن السعادة تكمن في الزواج من أصحاب المراكز والسلطة، ولا يقدرون أن السعادة الحقيقية تكمن في راحة البال، كما يرون أن سعادة الفتاة تبدأ بعدما يقوم المأذون بإتمام عمله أو كما يرى السباعي " بإتمام صفقته " لكن غالبًا ما تكون نهاية هذه الإجراءات بداية لمشقة الفتاة وتعاستها. وهذا ما حدث مع " عايدة " التي انتقلت بعد ذلك إلى بيت زوجها الارستقراطي؛ لتنقل لنا بعض عادات هذا الوسط الارستقراطي الجديد وتقاليده الذي اندمجت فيه، وهذا ما أتناوله في السطور القادمة.

الطبقة الارستقراطية:

يرى السباعي من خلال هذه النماذج الروائية في هذه الطبقة العليا " الارستقراطية " الجشع والظلم، واستغلال الفقراء الذين يرون أنهم ما خُلقوا إلا ليكونوا رعاع وخدم لهم، إضافة إلى عادات وتقاليد أبناء هذه الطبقة التي تميزهم عن غيرهم من أبناء الطبقات الأخرى.

ويرصد السباعي نموذجًا من هذه الطبقة العليا تمثل في أسرة " رئيس الوزراء " الوسط الجديد الذي انتقلت إليه " عايدة " بعد زواجها من " توتو " وتبدأ الحياة الزوجية لـ " عايدة " في وسطها الارستقراطي الجديد الذي أرغمها عليه والدها؛ لتحقيق أطماعه وتوسيع نفوذه، فنجدها تتطبع بطباعهم وتسير على نهجهم، وتتخلى عن مبادئها؛ وهذا يدل على سلبية الشخصية" عايدة " التي" لا تواجه الواقع، ولكنها تحاول

الهرب منه...دون أن تمتلك القدرة على أن تتجاوز الماضي، وتبني لها حاضرًا جديـــدًا ترتفع به عن مآسي الماضي وهمومه"(١).

فنجد "عايدة" تتأقلم على وضعها الجديد، وتتماشى معه، حتى تُصير وكأنها واحـــدة منه، ويتضح ذلك من قولها: "تعلمتُ كذلك احتساء الخمر.. ولم لا.. وقد أفهمني زوجي أن من الحطة والجهل أن أرفض الشراب.. وشربتُ في المرات الأولى وكأني أشـــرب دواء مُر.. ولكني تعودتُ بعد ذلك.. إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذلل كل صعب"(٢).

وعلى الرغم من اندماج " عايدة " في وسطها الجديد الذي أُرغمت على العيش فيـــه حتى صارت كأنها واحدة منه، نجدها تشمئز وتنتقد أصحاب هذه الطبقـــة لمـــا وجدتـــه وعاشته معهم من تفاهات وانحلال رغم ثقافتهم الظاهرية، ويتضح ذلك في أكثـــر مـــن موضع ومن ذلك ما لاحظته في حديثهم الذي يميل إلى الفرنسية أو الانجليزية ويترفـــع عن العربية، فتقول في ذلك عن والدها الذي يمنعها من قبل مـــن الاخـــتلاط:" بهـــؤلاء الرقعاء المرفهين المنعمين.. الملتوي الألسن الذين يربأون بأنفسهم أن ينزلقوا إلى هاوية الحديث باللغة العربية"(٣).

يقدم لنا السباعي وصفًا صريحًا لعادات هذه الطبقة الارستقراطية في ذلك الوقـــت، منتقدًا ما يحدث في محيطهم من سخافات وانحلال، هذا الوسط الذي اختاره الوالد لابنته " عايدة " لإرضاء غروره وتحقيق أطماعه ومصالحه الشخصية، غير مـــدرك للمكانـــة التي تحتلها في هذه الحلقة؛ فنجدها ترى نفسها داخل هذا الوسط لا تزيد عـــن آلـــة أو

(١) بناء الرواية " دراسة في الرواية المصرية ": عبد الفتاح عثمان ، القاهرة، مكتبة الشباب، د/ط ، ١٩٨٢م.، صـــ١٧٩.

(٢) إني راحلة: صـــ ١٩٧.

(٣)إني راحلة: صـــ ١٠٥.

سلعة يمكن الاستغناء عنها أو استبدالها، وتقول" عايدة" في ذلك:" وجدتني لا أزيد لدى زوجي عن سلعة بسيطة يملكها.. ليس أسهل عليه أن يستبدلها أو يستعيض عنها"(١).

وعلى الرغم من هذا الشعور الذي أحسته " عايدة " في هذا الجو الملبد بالغيوم، نجدها تحاول الحفاظ على بيتها والإخلاص لزوجها، مراعية في ذلك حقوق وواجبات زوجها الذي وضعه النصيب والقدر في طريقها، فتذكر " صممتُ على أن أبذل جهدي لكي أخلص له بذهني وتفكيري.. وصممت على أن أبدأ عملي في الدار كما كنت في بيت أبي"(٢).

لكن هذا الأمر من الجدية والالتزام بالنسبة لهؤلاء الرقعاء لم يعيروا له أي وزن أو قيمة؛ حيث إن مسألة الزواج لديهم تُعد شكليات ومظاهر زائفة، ومصالح مشتركة يجلبها الكبار على حساب أبنائهم دون مراعاة ما يكنه كلٌّ منهما للطرف الآخر من مشاعر؛ لذلك لم يأخذ البعض من هؤلاء الأبناء مسألة الزواج على محمل الجد؛ فالزواج بالنسبة لهم رابطة شكلية يعمها اللهو والاستهتار، وعدم تحمل المسئولية، وبالتالي يكون من الصعب عليه الإخلاص للطرف الآخر، وهذا ما تؤدي إليه حمق وسخافة العادات والتقاليد الرجعية؛ ؛ حيث يقوم زوج " عايدة " الارستقراطي المستهتر بخيانتها مع زوجة صديقه.

ولم يكتفِ السباعي بهذه النماذج لتعبر عن عادات وسمات أصحاب هذه الطبقة الارستقراطية المتدنية، فنجده يرصد لنا أبرز الخِصال التي تميز أبناء هذه الطبقة عن غيرهم من أبناء الطبقات الأخرى، وتتمثل في خصلة " التكبر " وأتناوله باختصار في السطور التالية حسب مواضعه التي وردت في هذه النماذج الروائية.

---

(١)السابق: صـ ٢٠٧.

(٢) السابق: صـ ١٩٨.

التكـــــــــــــبر:

التكبر أو التعالي تصرف يصدر من الإنسان في أثناء تعامله مع المحيطين به عـن طريق جوارحه، وهو ضد التواضع، كما يعد من الخصال الذميمة والأخـلاق الـسيئة التي يتصف بها الإنسان خاصة من أبناء الطبقة الارستقراطية.

وقد أشار إلى ذلك في العديد من المواضع في هذه النماذج الروائيـة، ومـن ذلـك انتقاد " عايدة " للوسط الارستقراطي الجديد الذي انتقلت إليه بعد زواجها رغمـا عنهـا من" توتو"، وبالرغم من اندماجها في هذا الوسط فإننا نجدها تنتقده بقولها:" أحسست أننا بدأنا نندمج في وسط جديد.. الوسط الارستقراطي الرفيع.. المتكبر المتعالي.. الملتـوي اللسان، الناطق بغير الضاد..فهمها قيل من تراثنا الآن.. فإني أحس إني كنت من الطبقة الوسطى"(١).

يذكر السباعي في هذا الموضع خلق التكبر بلفظه الصريح مرتين، وذلك التكـرار يؤكد مدى التصاق هذه الخصلة بهؤلاء المترفعين.

ولم يكتفِ السباعي بذكر هذا النموذج الارستقراطي الذي عبر مـن خلالـه عـن عادات وخصال هذه الطبقة الارستقراطية المترفعة، بل نجده يـستعين بنمـوذج آخـر اتضح من خلاله التصاق هذا الخلق السيئ بأغلب هؤلاء القوم، وقد تمثل هذا النمـوذج في أسرة " إسماعيل باشا " والد " أنجي " الذي كان يرى نفسه دائما مترفعا في السماء، أما من دونه من باقي البشر فهم بالنسبة له في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، ويتـضح هذا الأمر من خلال موقف هذا الرجل من ابنته " أنجي" التي اقتربت من " علي " ابـن الريس عبد الواحد عندما أنقذ حياتها لتشكره على ذلك المعروف، لكن " لم يبـدُ علـى الأمير كثير رضا من اقتراب ابنته من الصبي، ودفعه إلى الضيق بها عامـل الكبريـاء والتعاظم المتأصل في قرارة نفسه، الساري في كرات دمه، والذي يـأبى عليـه إلا أن

(١) إني راحلة: صـ ٩٧.

يضع هؤلاء الخدم والفلاحين في مرتبة أدنى من مرتبة البشر مرتبة وسطى، بين البشر والحيوان.. أو مرتبة أعلى من مراتب الحيوان، وفي حالة سخطه عليهم، يكونوا في أدنى مراتب الحيوان.. أما إذا أصر القانون والعرف على أن يجعلهم بشرا، ويعترف لهم بحقوق البشر، فلا أقل من أن تكون مرتبته هو وآله وذريته أعلى من مرتبة البشر"(١).

وينتقد السباعي هذه المعاملة التي يعاملها هؤلاء القوم لمن دونهم من الفقراء المساكين، والتي تعد من أسوأ الخصال التي يتصف بها هؤلاء المترفعين، وذلك على لسان " أنجي " التي تقول:" إن الطريقة في معاملة الناس هي أكثر ما تكرهه في أبيها.. أن يحتقر من حوله.. وإذا أعانهم.. كانت معونته إحساسا مذلا وهبة مهينة"(٢).

إن تلك الهوة الشاسعة التي يفرضها المجتمع الظالم على أفراده، وتفرق بين أبناء المجتمع الواحد على أساس الفروق الطبقية، وتقف حاجزا منيعا؛ لتمنع بعض الأفراد من تحقيق أحلامهم، مما يجعل بعض هؤلاء الأفراد ممن يمتلكون الإرادة الحديدية، والعزيمة الصلبة يسعى إلى كسر هذه الحواجز، وتغيير بعض الأفكار الرجعية التي تلزمنا بأن لكل طبقة حدودها التي تميزها عن غيرها، ولا يمكن تجاوزها أو تخطيها وهذا ما يختص " بالحراك الاجتماعي " الذي أتناوله في النقاط التالية.

الحراك الاجتماعي:

يعد الحراك الاجتماعي تبادلا في المواقع الطبقية، كما يعتبر نتاجا للصراع الطبقي الذي يؤدي إلى ظلم الكثير من أفراد المجتمع بسبب ما يفرضه عليهم من عادات وتقاليد صارمة تؤدي إلى حدوث فوارق شاسعة بين أفراد الطبقات المختلفة أبناء المجتمع الواحد الذي يصنع سدودا حصينة بينهما مما يسبب شعور بعض أفراده من الطبقة المطحونة بالاغتراب والعزلة داخل مجتمعه ووسط أهله، حيث تؤكد هذه الشخصية

(١) رُدَّ قلبي: جـ ١، صـ ٢٨.
(٢) السابق: صـ ١١٥.

التي تشعر بذلك الشعور" من خلال الرواية أن رفض الإيمـــان بقـــيم المجتمـــع عبـــث وسخف، ما لم نكن قادرين على وضع بديل أكثر إنسانية وسلامة منها. كمـــا تؤكـــد أن استسلام المرء لأوهامه الذاتية وتجاهله لعذاب أهله وفساد مجتمعـــه، يـــسبب اغتـــراب الإنسان وتأزمه نفسيًا واجتماعيًا"(١).

ويقدم السباعي معالجة دقيقة لقضية التفاوت الطبقي التي سادت ذلك العـــصر فـــي فترة زمنية معينة، والتي كان من نتائجها حدوث الحراك الاجتماعي.

ومن أبرز النماذج التي عبرت عن ذلك الحراك، الشخصية الرجالية " علي " ابن الريس عبد الواحد الذي قامت بينه وبين الأميرة " أنجي " قصة حب عميقة، لكن الفروق الطبقية تقف حاجزا في سبيل تحقيق سعادتهما، ونجد " علي " يشعر بالغربة والعزلة داخل مجتمعه ذي القيم والأفكار الرجعية، ونجده وحيدا؛ وقد" طافت بذهنه صورة أبيه.. طريدا ذليلا.. متهما بالجنون، لمجرد تفكيره في طلب يدها"(٢).

يعد هذا التفكير المؤلم الذي طاف بذهن " علي " دافعا ومحفزا جيدا لما صـــمم علـــى تحقيقه من تحسن في أوضاعه الاجتماعية التي فرضها عليه مجتمعـــه الظـــالم، ومـــن المعروف أن السهم لا يندفع للأمام إلا إذا شُدَّ للخلف أولا، ذلك مثلما حدث لـــ " علي " الذي تذكر حالة والده وهو مطرود مذلول من قصر الأمير لتجرئه على طلب يد " أنجي " من والدها.

ويعتبر هذا التفكير المؤلم نقطة تحول في حياة " علي " الذي قرر أن يحارب مـــن أجل أبيه وأمه ونفسه وحبيبته؛ ليكون كفأً لها، ويتضح ذلك من قوله لـــ " أنجـــي " فـــي إحدى المرات:" أريد أن أكون أهلا لكِ.. من أجلك أدفع " أنا " إلى المكافحة والنـــضال ليكون أفضل وأكمل"(٣).

---

(١) دراسات في نقد الرواية:طه وادي، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣، ١٩٩٤م.: صـــ ١٢٨.
(٢) رُدَّ قلبي: جـــ ٢، صـــ ٥٤٩.
(٣) السابق: جـــ١، صـــ٢٧٧.

إن هذا القول الذي يسيطر عليه اليأس والإحباط، قد زاد " علي" إصرارا على إصراره؛ ليناضل أكثر من ذي قبل؛ ليكون أفضل من أجل " أنجي " ويبدد هذا اليأس الذي لازمها، والتي طالما بددت يأسه من قبل وبعثت بداخله الأمل والتفاؤل.

إن الشيء الذي يصل إليه إنسان معين بقوته وإرادته، لا يعد أمرا مستحيلا على الإنسان ما دام يمتلك هذه الإرادة والعزيمة القوية، وهذا ما فعله " علي " الذي استطاع بجده واجتهاده ومثابرته أن يتخطى عتبة الفقر، ويرتقي إلى مراتب أعلى في السلم الاجتماعي، حيث يوصله كفاحه وغزوه إلى أن يفوض على رأس لجنة؛ لمصادرة أملاك أسرة الأمير والد " أنجي " بعد أن " أضحى ابن الجناينى القابع وراء الأسوار تماما كصاحب القصر المحلق فوق الأبراج. لقد زالت الأسوار، ودكت الأبراج، وأضحوا جميعا سواسية على ظاهر الأرض فلم تعد قمة ولا سفح"(١).

وهذه المكانة التي وصل إليها" علي" عاونته" أنجي" في الوصول إليها؛ وذلك يرجع إلى العزيمة والإرادة التي امتلكتها دون غيرها من الشخصيات النسائية الأخرى في هذه النماذج، والتي نالت بعضهن الحرية الكافية في اتخاذ قرارها، بينما خضعت الأخريات إلى السلطة الذكورية واستسلمت للعادات والتقاليد الرجعية التي فرضها عليها مجتمعها.

من هذا المنطلق يمكنني الانتقال إلى قضية أخرى، تعد من أهم القضايا التي لها دور هام في نجاح أو فشل الحياة الزوجية، ألا وهي قضية " الحرية " التي حظيت بها الشخصيات النسائية في هذه النماذج الروائية، وكذلك التي حُرمت منها بعضهن وما ترتب على ذلك الحرمان.

(١) نفسه: جـ٢، صـ٧٢٩.

المبحث الثالث: قضية الحرية:

إن أبرز المعوقات التي يمكن أن تواجه المرأة، وتكون سببًا رئيـسيًا فـي شـقائها ومعاناتها هو حرمانها من إبداء رأيها وممارسة حريتها ومنعها مـن تحقيـق ذاتهـا و" بتحقيق الذات الحرية الفردية المطلقة التي تعني بتحرر المرأة من الضوابط الاجتماعية، والدينية والاقتصادية، القائمة على المعايير المزدوجة، وتناول الصراع النفـسي الـذي تعانيه المرأة نتيجة الاضطهاد الذي تعيشه، أو النزاع بـين رغبتهـا بتحقيـق ذاتهـا، والاستسلام لسجنها الداخلي الذي ترسخت في أعماقـه ذات المفـاهيم التـي تحـاول محاربتها، والخارجي الذي يحارب محاولة المرأة التحرر من المفهوم التقليدي للأنوثـة "[1].

وقد أشار السباعي إلى قضية " الحرية " في هذه النماذج الروائية، من خلال تنوع شخصياته النسائية وجاء ذلك في صور متعددة؛ فنجد في هذه النماذج من نالت حريتها وحققت ذاتها بإرادتها، وعزيمتها دون الخضوع للعادات والتقاليد المستبدة، وأثبتت أن حريتها في إبداء رأيها تعد من أهم حقوقها في هذه الحياة، وعلى الجانب الآخر نجد منهن من حرمت من ممارسة حريتها وسُلبت حق من حقوقها في إبداء رأيها في الموضوعات التي تتعلق بمصيرها وحياتها، حيث تخضع لسطوة الأهل والعادات والتقاليد الصارمة التي فرضها عليها مجتمعها الظالم، وراحت ضحية هذا الخضوع والاستسلام؛ لذا كانت " من أخطر القضايا التي ارتبطت بمرحلة التجديد الفكري قضية حرية المرأة؛ وهي ذات وجه اجتماعي غالب"[2].

---

(١) المرأة في روايات سحر خليفة: صـــ١٨ ــ نقل من: المرأة العربية " الإبداع النسائي ، النظريات النسوية " سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة ، المملكة الأردنية الهاشمية ، كتاب الشهر ١٥ ــ ٢٠١٠ ــ صـــ ١٧.

(٢) الواقعية في الرواية العربية: محمد حسن عبدالله ،القـاهرة ، دار المعـارف ، د/ ط، ١٩٧١م.، صـــ١٠٠.

ومن أبرز الموضوعات أو القضايا التي عبر السباعي من خلالها عن قضية " حرية المرأة " موضوع " الزواج " وما يسبقه من حب، والذي يُعد ــ كما ذكرت سابقا ــ الموضوع الرئيسي لهذا البعد الاجتماعي الذي تشعبت منه القضايا الأخرى.

لذا نجد النموذج الروائي " إني راحلة " من أبرز هذه النماذج التي " تبلور أزمة الحب للتعبير عن قضية الحرية الذاتية والظلم الاجتماعي اللذين يسلبان المرأة سعادتها"(١).

وتمثل " عايدة " الشخصية النسائية المحورية في هذه الرواية؛ حيث عبر السباعي من خلالها عن معاناة المرأة التي تنتج من سلب حريتها وحرمانها أهم حق من حقوقها وهو إبداء رأيها في الأمور التي تتعلق بحياتها، حيث يشير السباعي إلى أن " حرية المرأة وبخاصة فيما يتعلق بأمور الزواج والعمل هي التي تقرب الرواية من الواقع"(٢).

فنجد " عايدة " منذ البداية تسعى إلى إثبات ذاتها من خلال بحثها عن الحرية، وتحقيق وجودها وسعادتها عن طريق زواجها ممن تحب، لكننا نجدها تدور في حلقة فارغة؛ فهي لا تمتلك الحق في التعبير عن رأيها؛ لخضوعها لسلطة الأب المستبد الذي يعاملها بتفكيره الجامد وثقافته الرجعية في ظل العادات والتقاليد البالية التي تمنعها من البوح بما في داخلها؛ لذلك تذكر" إني لا أجسر أن أقول إني لا أريد فلانا أو أحب فلانا.. إني لا أجرؤ قط أن أقول إني أحب"(٣).

و"عايدة " من الشخصيات التي سُلبت حريتها في اتخاذ قرارها، وخضعت واستسلمت للوضع الذي فرضه عليها والدها، بعد أن رأت أنه لا جدوى من الجدال والنقاش، فوفرت على نفسها عناء الحديث، وتساق إلى مصيرها كالشاة التي ليس لها الحق في التفكير وإبداء الرأي؛ حيث يقوم والدها باختيار شريك حياتها رغما عنها،

(١) صورة المرأة في الرواية المعاصرة: مرجع سابق: صـ٦٤.
(٢) الواقعية في الرواية العربية: مرجع سابق ، صـ١٠٧.
(٣) إني راحلة: صـ١٥٥.

وتستسلم لهذا الاختيار، معبرة عن إحساسها في ذلك الوقت بقولها:" كنت أشعر أني بـــلا رأي ولا حول لي ولا قوة.. وأني أشبه بالشاة.. لا تملك إلا أن تـــسير إلـــى مـــصيرها المحتوم"(١).

لذا يحاول السباعي معالجة هذه المسألة التي تتعلق بزواج الفتاة رغما عنها بطـــرق منطقية؛ حيث ينوه إلى أهم ما يجب فعله قبل القيام بمثل هذا الفعل، ويتمثل ذلـــك فـــي المشاورة أو" الشورى " والتي ألقي الضوء عليها في بعض السطور التالية.

الشـــــــــورى(٢):

عبر السباعي من خلال هذه النماذج الروائية عن هذه الفئة التـــي أغـــوتهم الـــدنيا بزينتها ونسوا ما أمرهم به الله وما نهاهم عنه –عز وجل– ورسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – ووالد" عايدة" من أبرز النماذج التي عبرت عن هذه الفئة؛ حيث نجده يقوم بتزويج ابنته رغما عنها، ويرفض من ترغب بالزواج منه دون استشارتها، وكل ذلـــك لتحقيق أطماعه ومصالحه الشخصية، ونجد ذلك واضحا في قوله:" لقد كنتُ دائما أتوقع لكِ وأنتِ خير الفتيات زوجا ملائما يضمن لكِ أحسن العيش، ويجعلكِ سيدة الناس ولقـــد وفقني الله إلى إنسان لا أعتقد أننا يمكن أن نطمع في خير منه. وأنا نفسي موافق عليه، ولكني رأيتُ قبل أن أعطي كلمة حازمة أن أستشيركِ في الأمر"(٣).

ينوه السباعي في هذا الموضع إلى ما يجب فعله عند اتخاذ قرار زواج الفتاة، وهي الاستشارة التي بها يصح المسار– في أغلب الأحيان– وقد بين الله –عز وجل– أهميـــة

---

(١) إني راحلة: صـــ١٦١.

(٢) الشورى لغة: يقال " شاوره " في الأمر: طلب رأيه فيه ، و" تشاور " القوم: أي شـــاور بعـــضهم بعضا ، و"استشار " فلانا في كذا أو في الأمر: أي شاوره . انظر: المعجم الوجيز: مرجع سابق: صـــ ٣٥٤.

(٣) إني راحلة: صـــ١٥١.

الشورى في حياتنا في قوله تعالى " وَالَّذِينَ استَجَابُوا لِرَبهُم وَأَقَامُوْا الصَّلَاةَ وَأَمرَهُم شُورَى بَيْنَهُم وَممَا رَزَقنَاهُم يُنْفقُون"(١).

والزواج من أهم الأمور الحياتية التي تتطلب أخذ مشورة الطرفين قبل تنفيذها؛ لذلك يلجأ والد" عايدة " إلى استشارة ابنته في أمر زواجها، لكن هذه الاستشارة لم تكن المقصودة من كتاب الله –عز وجل– وسنة رسوله الكريم؛ حيث نجدها استشارة ظاهرية مزيفة يقوم بها هذا الوالد؛ ليرضي غروره وكبرياءه، ونلمح ذلك من خلال الحوار الذي دار بين " الجدة " وابنها بشأن هذا الأمر، فتقول له في لوم وعتاب:

" لست أنتَ الذي تنتقي.. كان عليك أن تخيرها بين الاثنين.

– لقد استشرتها في خطبة " تهاني بك ".

– أين الاستشارة التي تتحدث عنها ؟ لقد كان حديثك فرض عليها"(٢).

ينتقد السباعي هذه الاستشارة التي يقوم بها الأب، والتي تُعَدُّ من باب الشكليات فقط؛ لأنه يدرك جيدا أن ابنته لن تعصي له أمرا قط مهما كان هذا الأمر؛ فقد غرز فيها هذا الشيء منذ الصغر؛ حيث رباها على طبيعته الجامدة وتفكيره الصارم؛ كي لا تحذو حذو والدتها، فنجده يرفض زواج ابنته ممن أحبت بسبب فقره وهو " أحمد "، بينما يوافق على تزويجها بمن ترغب عنه وهو" تهاني بك " ابن رئيس الوزراء، ويرى أنه من الحمق رفض مثل هذا النسب الذي سيجلب من وراءه كثيرا من المنافع، ونجد ذلك في حديث " الجدة " أيضا التي تلوم ابنها لرفضه " أحمد " الشاب الخلوق، كما أنها تعلم جيدا بأطماع وجشع ابنها، الذي يقول:

" أي أحمق يفضله على ابن رئيس وزراء ؟

---

(١) سورة الشورى: الآية: ٣٨.

(٢) إني راحلة: صـ١٦٩.

هذا من وجهة نظرك أنت َ.. فرئيس الوزراء قد ينفعك أنتَ.. ولكن الذي ســينفعها هو زوجها"(١).

يوافق هذا الوالد على إتمام هذا الزواج الذي يتماشى مع رغباته وأطماعه، ودائما ما يكون الفشل هو نتيجة هذا النوع من الزواج الذي تعرضت له " عايدة " وما زالت تتعرض له كثيرات من الفتيات دون أي تذمر أو اعتراض.

والسباعي يعالج هذه المسألة- الشورى- بطريقة عقلانية حازمة؛ فهو لا ينكر دور الأهل وأهمية الأخذ برأيهم في كافة الأمور الحياتية التي تتعلق بأبنائهم، وذلك يعد مــن أبسط حقوقهم، لكن إذا توصل الأمر لموضوع " الزواج " فعليهم أن يقومــوا بــواجبهم تجاه أبنائهم، وأن يستشيروهم في هذا الأمر استشارة واضحة، ويحترموا مشاعرهم ولا يقفوا في سبيل سعادتهم، ما دام اختيارهم كفأً لهم، وعلى مــن يتعلــق الأمــر بهــم ألا يخضعوا لقرار الأهل ما داموا لم يشعروا بأي توافق أو قبول تجــاه الطــرف الآخــر؛ لأنهم وحدهم من يتحملون مسئولية هذه الحياة المعقدة، وهذا ما أشار إليه السباعي على لسان " عايدة " بعد فشل زواجها التي أرغمت عليه، فتقول لــ " أحمد " موضحة:" لــم يكن الذنب ذنب أبي وحده.. لقد كان ذنبنا كلينا.. عندما تصل المسألة إلــى الــزواج.. فعليَّ أن أتزوج من أشاء، أنا وحدي التي سأحتمل عبء زواجي.. إن حياة المرأة فــي زواجها، فلها وحدها أن تنتقي شريك حياتها"(٢).

من خلال الاستعانة بهذه الشخصية النسائية " عايدة " عبر الــسباعي عــن المــرأة الشرقية الضعيفة التي لا تمتلك الحق في اتخاذ قرارها أو إبداء رأيهــا أو الاعتــراض على ما يفرض عليها من تسلط وقهر اجتماعي في ظل عادات وتقاليد باليــة يفرضــها المجتمع على أبنائه.

(١) السابق: صـــ١٦٨.

(٢) إني راحلة: صـــ٢٩٥.

إذا كانت " عايدة " قد حرمت من حقها في إبداء رأيها، وذاقت مرارة الحرمان العاطفي لخضوعها لهذه العادات والتقاليد الصارمة التي فرضت عليها، فإن " أنجي " رغم المعاناة التي عاشتها من ظلم والدها وقسوة أخيها بسبب حبها " عليًّا " إلا أنها لم تستسلم ولم تخضع لهذه العادات والتقاليد الرجعية، وصممت بإرادتها وعزيمتها القوية على كسر هذه العوائق وتجاوزها، ولم تعطِ الفرصة لهذه العادات والتقاليد أن تقف في سبيل سعادتها، وتبعدها عمن تحب ؛ لذلك نجدها تُحفز " عليًّا " دائما وتعطي له مزيدا من الأمل على مواجهة هذه التحديات والعوائق.

ونجد ذلك واضحا في إحدى كتاباتها له " إذا كانت تقاليد الحياة وأوضاعها قد فرضت علينا نوعا من الفرقة في فترة من حياتنا.. فلابد أن الطبيعة وهي العامل الأعظم قوة والأشد غلبة، لابد أن تعيد إصلاح ما أخطأته العوامل الأخرى، وإننا إذا صممنا على أن يكون أحدنا للآخر، فلسنا إلا معاونين للطبيعة في أداء واجبها"(١).

لذلك نجد " أنجي " من الشخصيات النسائية التي امتلكت العزيمة والإرادة في تقرير مصيرها بخلاف " عايدة " التي حرمت من حريتها، وراحت ضحية لعادات وتقاليد المجتمع البالية.

ينوع السباعي من خلال تنقله داخل وسطه الاجتماعي بين نماذجه النسائية؛ ليأتي بزهرة من كل بستان، ويقدم لنا المرأة في صورة حية متكاملة، فكما قدم نماذج المرأة التي حرمت من ممارسة حريتها، وباتت تبحث عن هذه الحرية في ظل العادات والتقاليد الصارمة حتى راحت ضحيتها- عايدة - والأخرى التي عانت كثيرا من أجل البحث عن حريتها وإثبات ذاتها، وتسعى وراءها بعزيمتها، وإصرارها إلى أن نالت قسطا غير قليل منها- أنجي- نجده يقدم أنموذجا آخر مغايرا لهذه النماذج؛ وذلك من خلال الاستعانة بالشخصية النسائية " شهيرة " التي مكنتها إرادتها الحديدية من أن تنال حريتها كاملة في شتى الأمور التي تتعلق بحياتها، وذلك بفضل والدها صاحب الثقافة

(١) رُدَّ قلبي: جـ١، صـ٣٧٧.

السليمة، والتفكير الواعي الذي يثق بابنته ويحترم قرارها النابع من عقلها الواعي وثقافتها الحرة التي رباها عليها، ويتضح ذلك من خلال موقفها من الزواج عندما " كان هناك بضعة عرسان.. قريب غني صاحب أطيان وعمارات، وأستاذ في الجامعة، وأمير عربي وحاول بعض أفراد العائلة أن يزكي بعض هؤلاء العرسان.. ولكنها لم تترك فرصة لإطالة المناقشة. وقالت في حزم:

– أنا التي سأتزوج. وقد قررتُ أن أتزوج مدحت

وقال الأب منهيا المناقشة القصيرة:

– انتهينا على خيرة الله"(١).

في هذا الموضع نرصد مساحة الحرية التي حظيت بها " شهيرة " والتي قامت على شيء من الثقة والتفاهم والمشاورة بين أفراد العائلة؛ لذلك مثلت " شهيرة " دور " المرأة التي تندمج في الهم الجماعي بعيدا عن عقدة النقص المصاحبة لمفهوم الأنثى، والتي تمارس حياتها بعيدا عن تقاليد المجتمع وعاداته"(٢).

وتقبل " شهيرة " على حياتها الزوجية التي اختارتها بإرادتها بكل همة ونشاط؛ حيث تتوقف سعادة أية فتاة على إحساسها بذاتها، وبالمسئولية تجاه الحياة التي اختارتها بنفسها دون أن يرغمها أحد عليها، ودائما ما تسعى أية فتاة اختارت حياتها الزوجية بإرادتها إلى تحقيق ذاتها، والبحث عن كل سبل السعادة الزوجية؛ لتثبت لنفسها ولمن حولها صحة اختيارها، حتى ولو اكتشفت بعد ذلك سوء هذا الاختيار، فنجدها– كثيرا– ما تتحمل نتيجته بمفردها، حتى لا تدع الفرصة لأحد أن يلومها على هذا الاختيار، وكثير من الأحيان يكون سوء الاختيار من الأهل أنفسهم، وفي كلا الحالتين تكون المعاناة للمرأة وحدها، التي قد لا تتحمل هذا الأمر، وتزيد معاناتها ليصل الأمر إلى

(١) لستِ وحدكِ: صـ١١٢.

(٢) صورة المرأة في الرواية الأردنية: عبيدات أروى: وزارة الثقافة. عمان، ط١، ١٩٩٥م ـ صـ١٢٥.

الفرقة والطلاق بينهما، وهذا ما توصلت إليه " شهيرة " بإرادتها بعد أن اكتشفت تنصل زوجها من كل مسئوليته تجاه حياتهم الزوجية.

وتلك المسألة– الطلاق– ما أتناولها في السطور التالية.

مسألة الطلاق(١):

يعد الطلاق من أبرز الآثار السلبية الناتجة عن الزواج، سواء أكان هذا الزواج بإرادة المرأة أم رغما عنها، وغالبا ما يكون نتيجة للزواج المجبر عليه.

وقد أشار السباعي في هذه النماذج الروائية إلى هذه المسألة–الطلاق– وذلك من خلال شخصيته النسائية " شهيرة " والتي مكنتها إرادتها وعقليتها الواعية من أن تنال كامل حريتها في اتخاذ قرارها؛ وذلك بمعاونة والدها المتزن العقل، الذي يوافق على قرارها في اختيار شريك حياتها " مدحت " ما دام رآه كفأً لها ؛ لذلك تحاول " شهيرة " بشتى الطرق تأسيس حياة زوجية سعيدة، وتسلك طرقا مغايرة عما شاهدته من تجارب زوجية فاشلة، مرت بها كثيرات من صديقاتها من قبل؛ وذلك من أجل الحفاظ على بيتها وزوجها، وتوفير كل سُبل الراحة المتاحة له و" بذكائها عودت نفسها الأحمال، فقد كانت تعرف أنه يعود متعبا من العمل، وأن عليها أن تريحه وتحتمله"(٢).

لذا خاضت " شهيرة " تجربتها بمفردها، عازمة على نجاحها وعدم إخفاقها بشتى السُبل، حتى لا تدع لأحد الفرصة أن يتدخل في حياتها، مثلما لم تدع أحدا من قبل أن يتدخل في اختيار شريك حياتها، متحملة في هذه التجربة كل أوقات الشدة والرخاء، وتقوم بدورها كزوجة وأم خير قيام" وانهمكت " شهيرة " في تربية الولد والبنت متحملة

(١) الطلاق لغة: حلُّ الوثاق ، ومشتق من الإطلاق وهو الإرسال والترك، انظر، فقه السنة للنساء: مرجع سابق ، صـ٥٤٣.

(٢) لست وحدك: صـ ١٧٥.

كل ما يصاحب تربيتهما من آلام وسعادة، تخوض التجربة بكل ما تملك من جهد وأمانة وإخلاص"[١].

رغم كل هذه الصعوبات والأعباء التي تتحملها " الزوجة " فإن الزوج " مدحت " لا يعير لذلك أدنى اهتمام؛ حيث يرى أن المرأة عليها أن تكون زوجة وأم وخادمة فـــي آن واحد، دون مراعاة للعناء والمشقة التي تواجهها، وعليها أن تتحمل عبء ذلك بمفردها؛ لذلك يتنصل هذا الزوج من مسئوليته تجاه زوجته وأبنائه " ووجدت " شـــهيرة " نفـــسها ككل زوجة تنطوي في متاعب الحياة الزوجية، وتغرق في المرحلة المعقدة من مراحـــل العلاقة بين المرأة والرجل التي تلي مرحلة الأماني والأحلام، والتي تحتاج لحل عقـــدها إلى الفهم الذكي المتبادل. والحمل المشترك الشجاع لمسئولية الحياة "[٢].

يرصد لنا السباعي في هذا الموضع أخطر ما يهدد أمن الحياة الزوجية واستقرارها، بل يعده بداية الانحلال والتفكك، الذي يؤدي إلى الفرقة بين الزوجين أو " الطلاق " وهو غياب عامل الفهم المتبادل، والحمل المشترك لهذه الحياة الزوجية، فنجده ينتقد ما يفعله الأزواج تجاه زوجاتهم؛ حيث فرارهم من المسئولية، فهذا الزوج الذي " يطالب بكل حقوقه ويتنصل من كل مسئوليته "[٣].

يقدم السباعي في هذه النماذج الروائية أنموذجا من الأزواج الذين لا يبالون لأهمية هذه الحياة الزوجية، ويتنصلون من مسئولياتهم تجاه زوجاتهم وأولادهم، وهذا النمـــوذج تمثل في " مدحت" المدلل زوج " شهيرة " التي خاضت تجربتها الزوجيـــة بكـــل عـــزم وجهد وأمانة؛ لتجد في المقابل تعصب زوجها وضيقه بها وبأولاده، وبحياتـــه الزوجيـــة

(١) السابق: صـــ ١٣٣.
(٢) لست وحدك: صـــ١٣١.
(٣) نفسه: صـــ١١٩.

بأكملها، الأمر الذي أدى إلى حدوث الخلافات واشتداد النزاع بينهما، إلى أن" انتهت إحدى المعارك بأن تركت له البيت.. وهي مصممة أن تكون الفرقة نهائية"(١).

يرصد لنا السباعي بنظرته المنطقية نتاج هذه الخلافات والنزاعات التي اشتدت بين الطرفين، فهذه الخلافات لم تنتهِ عند هذا القرار الذي توصلت إليه " شهيرة " حيث يحاول والدها أن يصلح بين الزوجين عدة مرات، لكنه لم يصل لحل في تلك المسألة إلا الفرقة والانفصال، وفي ذلك تقول" شهيرة " عن والدها:" جلس معنا عدة مرات.. ولكنه مل من كثرة الشكاوي وقال لي أخيرًا. ليس كل زوجين على ظهر الأرض يمكن أن يتفقا في حياة واحدة في بيت واحد مدى الحياة. من الجائز أن يحتمل كلٌّ منهما الآخر بعض الوقت، ومن الجائز أن يحتمل بعضهم البعض الآخر كل الوقت، فهذا أمر مستحيل فإذا كنتما عجزتما عن أن يحتمل كلٌّ منكما صاحبه بعد هذه المدة من الارتباط، فكفى أنكما قد احتملتما عشرتكما السنين التي مضت. ولن يكون أمرا عجيبًا إذا افترقتما"(٢).

وهذا القول النابع من عقلية هذا الأب الواعي لم ينشأ من فراغ؛ لكنه يُعد نتيجة لتجربة سابقة لهذا الأب؛ الذي ترك زوجته بعدما احتمل عشرتها عدة سنوات، وكان يقطن في شقة مجاورة لها؛ حتى لا تتشتت ابنته" شهيرة" بينهما من جراء هذه الفرقة؛ لذا نجده يشعر بحالة ابنته، ويعاونها على اتخاذ القرار الصواب الذي يخص راحتها النفسية، ويُلمح ذلك في موضع آخر شبيه بالموضع السابق، وذلك عندما" حاول الأب مرة بعد مرة أن يصلح ما بينهما حتى أصابه اليأس فقال لها:

– إذا لم تتحملي العيش معه، فاتركيه. لستِ أول زوجة تطلق"(٣).

(١) نفسه: صـ ١٣٦ –١٣٧.

(٢) نفسه: صـ ٩٤.

(٣) لست وحدك: صـ ١٥٢.

فمثلما أعطى هذا الأب الواعي ذو العقل الناضج المستنير ابنته " شهيرة " حريتها من قبل في اختيار شريك حياتها، نجده أيضا يتيح لها الحرية في مسألة أعقد وأخطر من مسألة الزواج، وهو الحرية في اتخاذ قرار الطلاق الذي وجدته فيه " شهيرة " الحل الأمثل لمثل هذه الحياة الزوجية التي تسودها الخلافات والنزاعات.

كما يقدم السباعي قضية أخرى تتعلق بقضية الزواج، وتعد من أخطر القضايا التي تهدد أمن واستقرار الحياة الزوجية، وتتمثل في قضية " تعدد الزوجات " والتي أتناولها بإيجاز في السطور التالية:

تعدد الزوجات:

تعد هذه القضية من ضمن القضايا التي نالت عناية السباعي في هذه النماذج الروائية؛ حيث نجدها تحتل مساحة غير قليلة في إحدى هذه النماذج؛ مما يؤكد تفشي هذه الظاهرة على نطاق واسع في مجتمعنا، ويعد الدين الإسلامي أول شريعة نظمت هذه القضية وحددتها بأربع؛ حيث كان العدد غير محدد في الشرائع والأديان السابقة للإسلام، وقد صرح ديننا الإسلامي الحنيف بذلك تصريحا قاطعا، جاء في قوله تعالى:" فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ "(١).

رغم أن الله –عز وجل– قد أعطى الرجل الرخصة؛ ليتزوج أكثر من امرأة وحدد ذلك بأربع كما في الآية السابقة، إلا أن هذه القضية" بتوابعها المختلفة قد أصبحت مصدر خطر يهدد الحاضر والمستقبل"(٢).

وذلك لأن الله –عز وجل– عندما أعطى الرجل هذه الرخصة؛ ليتزوج بأكثر من امرأة، فقد وضع لهذه الرخصة شروطا جوهرية لتحقيقها؛ وأهمها " العدل " لكنَّ كثيرا

---

(١) سورة النساء: الآية (٢).

(٢)ثقافة النسق " قراءة في السرد النسوي المعاصر ": رشا ناصر العلي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٠م، صـ ٢١٦.

من الأزواج لم يلتفتوا إلى هذا الشرط الأساسي الذي وضعه الله –عز وجل– لهم؛ فنجدهم لا ينظرون إلى الآية كاملة، بل ينظرون إلى نصف الآية الذي يوافق أهواءهم ورغباتهم، ويغفلون النصف الآخر من الآية، الذي يضع لهم الشرط الأساسي للتعدد وهو العدل، ويتضح ذلك من باقي الآية التي يقول فيها الله تعالى:" فَإِن خِفْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ذَلِكَ أَدْنَى أَلَا تَعُدلُوا "(١).

لكنَّ هناك كثيرا من الأزواج الذين يستخدمون هذه الرخصة بصورة خاطئة، وفهم غير صحيح لمبادئ وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

ويشير السباعي إلى هذا النوع من الأزواج من خلال الاستعانة بالشخصية الرجالية" عبد الراضي" الذي يقوم بالزواج من أخرى دون داعٍ أو مبرر يدعو إلى ذلك، ودون علم الزوجة بهذا التعدد، حيث يقوم بالزواج أكثر من مرة على زوجته دون علمها، لكن سرعان ما يذاع هذا الخبر ويصل إلى زوجته، وكان رد فعل الزوج هو إنكار هذا الفعل، ونجد ذلك واضحا من خلال الحوار الذي دار بين الزوجين، وذلك عندما علمت زوجته أم عبده بزواجه الأخير من زهرة وواجهته بذلك، ويرفض هذا الأمر وترد عليه، قائلة:

يعني لم تتزوج !

ولماذا أتزوج أينقصني الهم والنكد؟"(٢).

هكذا تتحول الحياة الزوجية التي يترك فيها الزوج زوجته وأولاده؛ للبحث عن أخرى، دون علم زوجته الأولى، ويجهل تعاليم الدين الإسلامي التي تنص على حق الزوجة في المشاورة في الأمور الحياتية، وذلك تطبيقا لقوله ــ عز وجل ــ:" فَبِمَا رَحمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنْتَ فِظّا غَلِيظَ القَلبِ لَانفَضُّوا مِن حَولِكَ فَاعفُ عَنهُمْ

(١) سورة النساء: الآية: (٢: ٣)
(٢) لست وحدك: صـ ٣٩.

وَاستَغفِر لَهُم وَشَاوِرهُم فِـــي الأَمــرِ، فَـــإِذَا عَزَمــتَ فَتَوَكَّــل عَلَـــى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحـــبُّ المُتَوكِلِينَ"(١).

ويرصد السباعي بنظرته الواقعية الأعباء والمشكلات التي تقع على عاتق الزوج، بسبب هذا التعدد الذي يسلكه دون أن يلتزم بالشرط الجوهري لصحة هذا التعدد وهو " العدل " وتظهر تلك الأعباء عندما يبدأ تمرد كل واحدة منهن، والمطالبة بحقها، حيث أخذت كلٌّ منهن تطالب بحقها إلى أن " ازدادت المشاكل تعقيدا لدى " عبد الراضي " فلقد بدأت " زهرة" تطالب بحقها كزوجة.. حقها في المرتب والسلطة الزوجية.. وبدأ الصراع بين زوجات " عبد الراضي " ينتقل إلى ساحة المجلة.. عندما ترك حجرته هاربا من جميع زوجاته"(٢).

كما تطرق السباعي في هذه النماذج الروائية إلى العديد من القـــضايا الاجتماعيـــة الأخرى، والتي تؤثر- غالبا- على الحياة الزوجية للمرأة وتهدد أمنها واستقرارها والتي من أهمها قضية " عمل المرأة" حيث نالت حيزا من اهتمام السباعي فـــي إحـــدى هـــذه النماذج، والتي ألقي الضوء عليها بإيجاز في السطور التالية.

عمل المرأة:

لقد شغلت قضية " عمل المرأة " جانبا من عناية السباعي في هذه النماذج الروائية، كما شغلت أذهان كثيرين غيره من الأدباء والمفكرين، وذلك يرجع للمنزلة المرموقة التي احتلتها المرأة في شتى المجالات منذ قديم الزمان" فالمرأة لا تعمل كي تحقق استقلالها الاقتصادي فقط، أو لسد احتياجاتها المادية، بل لأن العمل هو أحد مكونات تحقق الذات"(٣)

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) لستِ وحدكِ: صـــ٤١.

(٣) النقد النسائي للأدب القصصي في مصر: زينب العسال ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ط، ٢٠٠٨م. صـــ١٦٧-١٦٨.

وقد أشار السباعي إلى هذا النوع في هذه النماذج الروائيـــة، وذلـــك مـــن خـــلال الشخصية النسائية "شهيرة " التي خرجت إلى ميدان العمل؛ لتثبت ذاتها وتحقق وجودها، وترعى أولادها " محمود" و" راوية " بعد طلاقها من " مدحت " الزوج الذي تتصل من مسئوليته تجاه زوجته وأولاده، ومما يدل على ذلك الحوار الذي دار بينها وبين والـــدها والأستاذ " عبد اللطيف " والذي دار حول رحلة الصعود إلى الفضاء ــ قبل حـــدوثها ــ ورأت " شهيرة" إن هذه الرحلة تعد حلما بعيد المنال بالنسبة لها، وأنهت هـــذا الحـــديث عن الرحلة بقولها:

- دعونا نتحدث عن الأحلام القابلة للتحقيق.
- مثل ماذا ؟
- مثل البحث عن عمل ألتحق به.
- إني أريد أن أعمل بالتلفزيون.
- والتفتت إلى أبيها متسائلة:
- ألديك مانع ؟
- أبدا

وقال عبد اللطيف:

– هذه مسألة سهلة. اعتبري حلمك قد تحقق"(١).

من خلال هذا الحوار الموجز طرح السباعي أكثر من مسألة يريد إيصالها للقارئ؛ حيث تتضح فكرة " شهيرة " في بحثها عن عمل توفر منه احتياجات ومتطلبات أولادها بعد طلاقها من زوجها، كما تتضح أيضا الشورى قبل الإقدام على الشيء في جو مـــن التفاهم والثقة، وذلك في أثناء أخذ " شهيرة " رأي والدها في شأن عملها الـــذي تنـــوي

(١) لستِ وحدكِ: صـــ ١٦٨.

عليه، كما ظهرت مساحة الحرية التي أعطاها والد " شهيرة " إياها فـــي هـــذا الأمـــر، والتي منحها إياها في العديد من المسائل السابقة كالزواج والطلاق. على الرغم من إنه " مع تعدد ظاهرتي الزواج والطلاق، يشتد الحصار على الأنثى، وتصبح حبيسة بيئتهـــا الاجتماعية بكل ما تحمله من أعراف وتقاليد"(١).

ومن ثمَّ يكون السباعي قد تناول قضية الزواج بأدق تفاصيلها موضحًا أثرها على حياة المرأة.

(١) المرأة في روايات سحر خليفة: مرجع سابق، صـــ٢٨.

الخاتمة:-

بعد الحديث عن هذه القضايا المتعددة التي نالت عناية السباعي في هذه النماذج الروائية وعالجها بطرق منطقية سليمة، نجد أن " كل قضية من هذه القضايا لا تشكل القضية الكلية للرواية، بل إنها قضايا محورية، تلتحم مع بعضها البعض لتشكل رؤية كلية وشمولية للرواية"(١).

ومن خلال هذا يتضح لنا أن صورة المرأة في هذه النماذج من روايات يوسف السباعي ذات دلالة واضحة على فئة أو شريحة من المجتمع المصري؛ وذلك لأن العمل الأدبي لا يمكن النظر إليه بوصفه عملا فرديا منعزلا أو مستقلا بذاته، وإنما بوصفه عملا يعبر عن فئة معينة من المجتمع، فلا يمكن" ملاحظة الشخصيات في العالم إلا حينما تظهر ذاتها في الفعال. فالحياة تمكننا من رؤية نفوس الغير من خلال الأحداث، لا الأحداث من خلال نفوس الغير"(٢).

لذا وفق السباعي في الاستعانة بالمرأة نموذجا؛ ليعبر بها عن القضايا الاجتماعية التي يريد إيصالها للقارئ، وذلك بأسلوبه الواضح السلس الذي يتميز بعنصر الإثارة وجذب الانتباه.

ويُلاحظ أن يوسف السباعي في تحليله لواقعه الاجتماعي بهذه الصورة، يرجع إلى " معايشته لأبيه، إنها كان معايشة وجدانية، كما أن السباعي الأب الذي كان يترجم روائع الأدب العالمي وخاصة مؤلفات كبار الكُتَّاب أو عظماء الكُتَّاب الكلاسيكيين من أمثال " ديستويوفسكي " أعطت يوسف السباعي إدراكا بالبعد الاجتماعي للرؤية، ودخلت في وعيه سواء أراد أم لم يرد الإحساس، الإحساس بمسئولية الحياة، وضرورة

---

(١) ثقافة النسق: مرجع سابق: صـ٦٥.

(٢) نقد الرواية في الأدب العربي: مرجع سابق: صـ١٥٦، نقل من: الإحساس بالجمال: محمد مصطفى بدوي، القاهرة، الأنجلو، د/ ت، صـ١٩٦- ١٩٧.

وجود من يقودها إلى الأفضل، وأن هذا القائد هــو بالتأكيــد " الروائـــي "، إذن تـــأثر السباعي بشيئين من الأب:

أولهما: الإحساس بأهمية الحرية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي..

ثانيا: الإحساس بالتضامن البشري أو الإنساني، وكلاهما يؤدي إلى الإحساس بضرورة الثورة على الواقع أو على الأقل الثورة على ما يعوق هذين الإحساسين"(١).

(١) تطور الفكر الاجتماعي " في الرواية العربية ": فتحي سلامة ، القاهرة ، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٨٠م.، صـــ١١٢.